إطلالةٌ على يوميات مسلم ألماني

أبو بكر خالد سعد الله

2026-02-25

"يوميات مسلم ألماني" (Tagebuch eines deutschen Muslims) هو عنوان اختاره الدبلوماسي الألماني الدكتور ويلفريد هوفمان (1931–2022) لمؤلَّفه الذي صدر قبل نحو أربعين سنة، وتُرجم من الألمانية إلى عدة لغات، منها الإنجليزية والفرنسية والعربية. وقد اعتنق الإسلام في سبتمبر عام 1980، فأصبح اسمه مراد هوفمان. وقبل تقاعده عام 1995، شغل مناصب دبلوماسية متعددة في سويسرا وفرنسا والجزائر والمغرب والنمسا وبلجيكا ويوغسلافيا (سابقًا). كما كان بين عامي 1983 و1987 مديرًا للإعلام في حلف الناتو. ثم عُيّن سفيرًا لبلده في الجزائر خلال الفترة 1987–1990، وبعدها سفيرًا في المغرب حتى عام 1994.

أما دراسته فكانت في جامعة ميونيخ، حيث تخصص في القانون، ثم واصل دراساته العليا في الولايات المتحدة في عدد من الجامعات، منها جامعة هارفارد. وقد فاز هوفمان بعدة جوائز عالمية، من بينها جائزة "شخصية العام الإسلامية" (2009) في الإمارات، و"وسام الحرية من الدرجة الأولى" (2010) في الأردن. وأشار في أحد الحوارات إلى أنه اطّلع على نحو مئتي كتاب وثيق الصلة بالأديان قبل اعتناقه الإسلام. وكان رحمه الله خطيبًا متميزًا، يتقن عدة لغات، مما جعله مطلوبًا لإلقاء مئات المحاضرات الفكرية حول العالم.

عند التساؤل عمّا قاد مراد هوفمان إلى اعتناق الإسلام، نجده يشير إلى جملة من الأحداث الفكرية وقراءاته المتعمقة لعدد من المؤلفات المؤثرة. وقد استمر في هذا التأمل قرابة عقدين قبل أن يعلن إسلامه.

ومن الشخصيات التي تأثر بها عالم اللغات البريطاني الشهير ريتشارد بورتن (1821–1890)، الذي يُعد من أبرز من درسوا ثقافة العالم الإسلامي. وقد تأثر هوفمان بكتابه الموسوم بـ"السرد الشخصي للحج إلى المدينة المنورة ومكة" تأثرًا بالغًا. ويشير في يومياته المؤرخة في 2 نوفمبر 1974 إلى ما دوّنه بورتن من ملاحظات حول المسلمين خلال رحلته، وكيف أثّرت تلك القراءة في إعادة نظره في كثير من الصور الذهنية السائدة آنذاك عن الإسلام وأتباعه.

مراد هوفمان (1931-2022)

ويلاحظ القارئ أن هوفمان بدأ يجرب الصيام في شهر رمضان قبل اعتناقه الإسلام. ففي بلغراد (عاصمة يوغسلافيا سابقًا) عام 1978 كتب في يومياته: "قررنا هذا العام أن نلتزم بالصيام كما هو مفروض على المسلمين، على سبيل التجربة". ويعلّق على هذه التجربة مشيرًا إلى أهمية شرب كمية كافية من الماء قبل بدء الصيام فجرًا. كما أبدى انزعاجه من اضطراره طوال اليوم إلى التنبيه بأنه صائم، نظرًا لأن العادة السائدة في وزارة الخارجية اليوغسلافية كانت تقضي بتقديم القهوة التركية والعصير والماء للدبلوماسيين الأجانب خلال زيارات العمل.

ومع ذلك، لاحظ أنه بسبب وجود أكثر من مليون مسلم في ذلك البلد، كان يُتعامل مع رفض الضيافة في رمضان "بتفهّم، أو على الأقل باحترام". واستنتج من هذه التجربة أن المرء "يكتسب يومًا بعد يوم مزيدًا من القوة المعنوية والثقة بالنفس في القدرة على تحديد الأولويات"، متسائلًا: "أليس الهدف في نهاية المطاف هو المناعة ضد إغراء الشرك وعبادة الأمور الثانوية؟".

ومن الكتب التي أثرت فيه كذلك كتاب "الطريق إلى مكة"، وهو سيرة ذاتية كتبها محمد أسد (1900–1992)، الذي اعتنق الإسلام بعد أن كان يهوديًا من أصل نمساوي، وُلد في مدينة لفيف (الأوكرانية حاليًا). ويسلط الكتاب الضوء على تجربة المؤلف التي تُوّجت باعتناقه الإسلام، كما يعرض التحديات التي واجهها كمفكر مسلم في مجتمعات مختلفة.

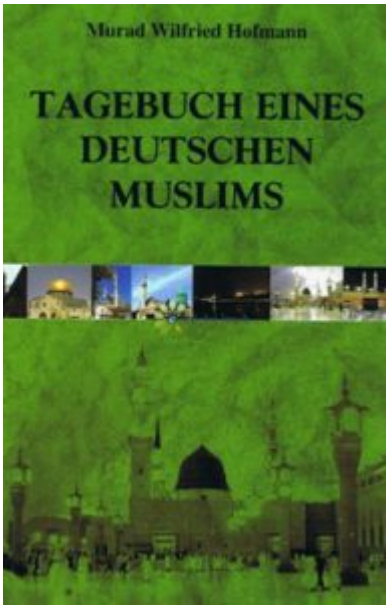

وفي يوم 18 أغسطس 1980، عدّد هوفمان في يومياته خصال محمد أسد وجهوده، واعتبره شخصية متعددة المواهب، أسهمت إسهامًا علميًا حقيقيًا في فهم الإسلام في الغرب. وأكد أن تأثيره لم يكن بسبب سعة علمه فحسب، بل أيضًا للإعجاب بشجاعة هذا "المسلم الشجاع". واستشهد بإعجاب بقول محمد أسد حول حاجة الحضارة المعاصرة إلى مراجعة مسارها المادي والعودة إلى البحث الجاد عن الحقيقة الروحية. وختم هوفمان حديثه عنه بقوله: "يمكن القول إن أسد إنسان عصر النهضة بمعايير إسلامية".

وفي 27 فبراير 1980 كتب هوفمان أن "السيرة الرائعة لمحمد أسد جعلتني أدرك أن ما يُسمى التفاؤل في المشرق لا يتعلق بالمستقبل، بل بالماضي"، وتوقف عند ملاحظته بشأن إعادة تقييم القيم الاجتماعية التي تُعلي من رابطة جماعة المؤمنين (الأمة) بوصفها إطارًا جامعًا.

كان هوفمان قنصلًا لبلاده في الجزائر قبل استقلالها بشهرين، في ربيع 1962. ويروي في يومياته المؤرخة في 3 مايو 1962 كيف ذهب إلى الصحراء للالتقاء بالألمان وتشجيعهم على البقاء في الجزائر للتنقيب عن البترول بعد الاستقلال. وفي نهاية الشهر نفسه، صُدم – وهو مقيم في الجزائر العاصمة – بمشاهد سقوط نحو ألف ضحية شهريًا على يد المناهضين للاستقلال من الفرنسيين المتمردين. وكان يتم نقل ضحايا جدد كل عشرين دقيقة تقريبًا، ومعظمهم مصابون بطلقات في الرأس من الخلف. ويضيف أنه كان يتساءل مرارًا عن سر صمود الجزائريين وانضباطهم في ظل تلك الظروف القاسية، ثم يكتب: "وفي النهاية اكتشفت الجواب: لقد قرأت القرآن".

كما أعجب هوفمان بعدد من علماء العرب والمسلمين، فكتب في 28 أبريل 1982: "من يعتقد أن الإسلام دين معيق للتقدم، فلن يجد قراءة أفضل من كتاب المقدمة لابن خلدون"، وذلك بعد مقارنته بعدد من المفكرين الغربيين، حيث رأى في فكر ابن خلدون عمقًا سبق عصره.

ومن أبرز ما أثر فيه أداء فريضة الحج في ديسمبر 1982، حيث خصص في يومياته نصوصًا مطولة تحت عنوان "في الرداء الأبيض للحج"، وصف فيها مشاعره الروحية وما شهده من مشاهد جامعة للمسلمين من شتى القارات. ومن ملاحظاته قوله: "من خلال اختلاف لون الأقدام فقط يمكن للمرء أن يدرك أثناء الصلاة أننا اجتمعنا من جميع القارات". وأضاف أن النبي محمد ﷺ لم يزعم تأسيس دين جديد، بل كانت رسالته إعادة الناس إلى الدين الإلهي وإتمامه.

تلك بعض خواطر دبلوماسي غربي قضى أكثر من عشرين عامًا في التأمل والتفكير العميق قبل أن يعتنق الإسلام عن قناعة راسخة.

المصدر

- Hofmann, Murad Wilfried. Tagebuch eines deutschen Muslims. Köln, IB Verlag Islamische Bibliothek, 1985.

تواصل مع الكاتب: sadallah@hotmail.com